(١١٤) سورة الناس مكية وآياتها ست

سورة الناس مكية ، وهي ثاني المعوذتين ، وفيها الاستجارة برب الأرباب من شر أعدى الأعداء إبليس اللعين ، وأعوانه من شياطين الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء ، وقد ختم القرآن العظيم بالمعوذتين كما بُدئ بالفاتحة ، ليجمع بين حسن الافتتاح وحسن الاختتام ، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره ، فإنه يبدأ التلاوة بالتعوذ ويختم القرآن بالمعوذتين ، وهذا غاية الحسن والجمال ، وبالله التوفيق .

« تم بعونه تعالى كتاب إيجاز البيان في مقاصد سور القرآن وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين . السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٣٩٨ .

سورة الناس

وهي ست آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: (قل اعوذ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونظيره: (فخذ أربعة من الطير) وأيضًا أجمع القراء على ترك الإمالة في الناس، وروي عن الكسائي الإمالة في الناس إذا كان في موضع الخفض.

المسألة الثانية: أنه تعالى رب جميع المحدثات، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص، وذلك لوجوه: **أحدها:** أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلهم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خَطْب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم. **وثانيها:** أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس. **وثالثها:** أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول: يا رب يا مُلِكي يا إلهي.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ هما عطف بيان، كقوله: سيرة أبي حفص عمر الفاروق، فوصف أولاً بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكًا وقد لا يكون، كما يقال: رب الدار ورب المتاع، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فلا جرم بيَّنه بقوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثم الملك قد يكون إلهًا وقد لا يكون، فلا جرم بيَّنه بقوله: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ لأن الإله خاص به، وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره، وأيضًا بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه، وهو من أوائل نعمه إلى أن رباه وأعطاه العقل فحينئذٍ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملكه، فثنى بذكر الملك، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وعرف أن معبوده مستحق لتلك العبادة، عرف أنه إله، فلهذا ختم به، وأيضًا أول ما يعرف العبد من ربه كونه مطيعًا لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة، وهذا هو الرب، ثم لا يزال يتنقل من معرفة هذه الصفات إلى معرفة جلالته واستغنائه عن الخلق، فحينئذٍ يحصل العلم بكونه ملكًا؛ لأن الملك هو الذي يفتقر إليه غيره ويكون هو غنيًّا عن غيره، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين، وأنه هو الذي ولهت العقول في عزته وعظمته، فحينئذٍ يعرفه إلهًا.

المسألة الرابعة: السبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار، ولأن هذا التكرير يقتضي مزيد شرف الناس، لأنه سبحانه كأنه عَرَّف ذاته بكونه ربًّا للناس، ملكًا للناس، إلهًا للناس ولولا أن الناس أشر مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه ربًّا وملكًا وإلهًا لهم.

المسألة الخامسة: لا يجوز ههنا مالك الناس، ويجوز: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في سورة الفاتحة، والفرق أن قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أفاد كونه مالكًا لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد أنه مالك، ومع كونه مالكًا فهو ملك، **فإن قيل**: أليس قال في سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيلزم وقوع التكرار هناك؟ **قلنا**: اللفظ دل على أنه رب العالمين، وهي الأشياء الموجودة في الحال، وعلى أنه مالك ليوم الدين أي قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شيء والمالك إلى شيء آخر فلم يلزم التكرير، وأما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شيء واحد، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق، وأيضًا فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس، وقد قرئ: (مالك) لكن في الشواذ.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر، كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه، نظيره قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦] والمراد ذو الوسواس، وتحقيق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠] وأما الخناس فهو الذي عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر، كالعواج والنفاثات، عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

اعلم أن قوله: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ (الذي يوسوس) على أحد هذين الوجهين.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

ففيه وجوه:

أحدها: كأنه يقول: الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس، كما قال:

﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى، فشيطان الإنس يكون كذلك، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه. **وثانيها:** قال قوم: قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قسمان مندرجان تحت قوله في: ﴿صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ كأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنسانًا والإنسان أيضًا يسمى إنسانًا، فيكون لفظ الإنسان واقعًا على الجنس والنوع بالاشتراك، والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روي أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم: من أنتم؟ فقالوا: أناس من الجن. أيضًا قد سماهم الله رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فجاز أيضًا أن يسميهم ههنا ناسًا، فمعنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخنث لا يقتصر على إضلال الإنس بل يضل جنسه وهم الجن، فجدير أن يحذر العاقل شره. وهذا القول ضعيف؛ لأن جعل الإنسان اسمًا للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جنًّا لاجتنانهم والإنسان إنسانًا لظهوره من الإيناس وهو الإبصار، وقال صاحب الكشاف: من أراد تقرير هذا الوجه فالأَوْلى أن يقول: المراد من قوله: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي في صدور الناسي كقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] وإذا كان المراد من الناس الناسي، فحينئذٍ يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى. **وثالثها:** أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من الجميع الجنة والناس.

واعلم أن لهذه السورة لطيفة أخرى: وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والمَلِك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلَّت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة «الناس»

مِثل «الفلق» لأنها إحدى المعوِّذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجُهنيّ عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل اللهُ عليَّ آياتٍ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[1]. ورواه مسلم[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكهم ومُصْلِح أُمورِهم. وإنما ذكر أنه ربُّ الناس، وإن كان ربّاً لجميع الخَلْق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس مُعَظَّمون، فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربُّ لهم وإن عُظِّموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأَعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ . إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيرَه، فذكر أنه إلههم ومعبودُهم[3]، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④﴾

يعني: مِن شرِّ الشيطان ـ والمعنى: من شرِّ ذي الوسواس؛ فحذف المضاف ـ قاله الفرّاء[4]. وهو بفتح الواو بمعنى الاسم، أي: المُوسوِس. وبكسر الواو

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٠٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٣٠٣).

(٢) في صحيحه (٨١٤).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢.

المصدر، يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النَّفْس. يقال: وَسْوَسَتْ إليه نَفْسُه وَسْوَسةً ووِسوَسَة، بكسر الواو. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُليّ: وَسْواس[١]. قال ذو الرُّمة:

فبـاتَ يُشـئِزه ثَـأْدٌ ويُسْـهِـرُهُ   تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ[٢]

وقال الأعشى:

تسمع للحَلْي وَسْواساً إذا انصرفَتْ   كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[٣]

وقيل: إن الوسواسَ الخنَّاس ابنٌ لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم فقال: ما هذا؟ قالت: جاء عدوُّنا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أَقُلْ لكِ: لا تُطيعيه في شيء، هو الذي غرَّنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعةَ أرباع، وعلَّق كلَّ ربع على شجرة، غيظاً له. فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم، فقال: يا خَنَّاس، فحيِيَ فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفُليه؛ فجاء آدم فحرَّقه بالنار، وذَرَّ رمادَه في البحر. فجاء إبليس فقال: يا حوّاء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدمَ إيَّاه، فذهب إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفُليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرَتْه. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردتُ، وهذا مسكنُك في صدر ولد آدم. فهو مُلتقِمٌ قلبَ ابن آدم ما دام غافلاً يُوسوس، فإذا ذكرَ الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه[٤]. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (وسوس).

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٠ ، وفيه: تذاؤب، بدل: تذؤُّب. قال شارحه أبو نصر الباهلي: يريد: بات الثور. يُشئزه: يُقلقه. والثَّأد: الندى، تذاؤب الريح: هو أن تأتيه الريح من كل وجه. والهضب: المطر.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥ ، وسلف ٩/ ١٧٥ وينظر شرحه ثمة.

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

ووُصِف بالخناس لأنه كثيرُ الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللهَ، أي: يتأخَّر[١]. وفي الخبر: إنَّ الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غَفَل وَسْوس، وإذا ذكر اللهَ خَنَسَ[٢]، أي: تأخَّر وأقصر.

وقال قتادة: «الخَنَّاس» الشيطان له خُرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غَفَل الإنسانُ وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنس[٣]. يقال: خَنَسْتُهُ فخَنَس، أي: أخَّرته فتأخر. وأخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحَضْرميّ - أنشد رسول الله ﷺ -:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تَكرُّماً وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ[٤]

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطانَ واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خَنَس، وإذا نسي اللهَ التقمَ قَلْبَه فوسوس»[٥]. وقال ابن عباس: إذا ذكر اللهَ العبدُ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غَفَلَ التَقم قلبه فحدَّثه ومَنَّاه[٦]. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدأ الوسواس من قِبل الوضوء[٧]. وقيل: سُمِّي خَنَّاسًا لأنه يرجع إذا غَفَلَ العبدُ عن ذكر الله. والخنس: الرجوعُ، وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ امتِعاسا يزدادُ إن حَيَّيْتُه[٨] خِناسا

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ - ٧٥٥ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨ .

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٧٤ ، واللسان (دحس).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٤٢ ، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٣٩ : غريب.

(٦) سلف قريباً بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر المنثور ٦/ ٤٢٠ .

(٨) في (د): جننته، وفي (ظ): خنسته، وهي غير معجمة في (ز)، والمثبت من (م)، والرجز في النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ ، والبيت الثاني فيه: يزداد من خنسه خناسا.

وقد روى ابنُ جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغَفَل وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس، فعلى هذا يكون في تأويل الخناس] وجهان[١]: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجرى الدَّم»[٢]. وهذا يُصحّحُ ما قاله مقاتل.

وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ قال: سألت الله عن أن يُريني الشيطانَ ومكانَه من ابن آدم، فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً[٣] كخطم الكلب، فإذا ذَكَر اللهَ خنس ونكس، وإذا سكت عن ذِكْر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصفَ أبو ثعلبة أنه متشعِّب في الجسد، أي: في كل عضو منه شعبة.

ورُوِي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنُّه ـ: ما أَمِنتُ الزنى، وما يُؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فَيُوتِدَه؟! فهذا القولُ يُنبئك أنه مُتشعِّبٌ في الجسد[٤]، وهذا معنى قول مقاتل.

---

(١) عبارة النسخ: وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وجهين.. وفي هذه العبارة سَقَطٌ وتحريف، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٧٩، والكلام منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ وفيه قصة، وسلف ١/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) الخَطْم: من الدابَّة: مقدَّم أنفها وفمها. القاموس (خطم).

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٤.

ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت[١].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

أخبر أن المُوسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطانُ الإنس فيأتي علانية[٢]. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن[٣]. وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل: هل تعوَّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَمِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢][٤].

وذهب قومٌ إلى أن الناس هنا يُراد به الجن. سُمُّوا ناساً كما سُمُّوا رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وقوماً ونفراً[٥]. فعلى هذا يكون «والناسِ» عطفاً على «الجِنّةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وذُكر عن بعض العرب أنه قال وهو يُحدِّث: جاء قومٌ من الجن فوقفوا. فقيل: مَنْ أَنتمْ؟ فقالوا: ناسٌ من الجن. وهو معنى قول الفرّاء[٦].

وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: «من الجِنةِ» بيان أنه من الجن، «والناسِ» معطوف على الوسواس. والمعنى: قُلْ أعوذُ بربِّ الناس من شرِّ الوسواس، الذي هو

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩.

(٤) ذكره مختصراً من قول أبي ذر رضي الله الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٠٣، وسلف ٨/ ٥٠٢ مرفوعاً.

(٥) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وينظر الكلام في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨، وزاد المسير ٩/ ٢٧٩.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٨.

من الجِنة، ومن شرِّ الناس. فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ بالله من شرِّ الإنس والجن[١].

والجِنَّة: جمع جِنّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة.

وقيل: إن إبليس يُوسوِس في صدور الجن، كما يُوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون «في صدور الناس» عامًّا في الجميع، و«من الجِنة والناس» بيانٌ لما يُوسوِس في صدره.

وقيل: معنى «مِن شر الوسواس» أي: الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديثُ النَّفْس. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ به أنْفُسَها ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم[٢].

فالله تعالى أعلمُ بالمرادِ من ذلك.

تمَّ الجزء الثاني والعشرون من تفسير القرطبي
وبه تمَّ الكتاب
والحمد لله ربِّ العالمين

(١) زاد المسير ٩/ ٢٧٩.

(٢) في صحيحه (١٢٧)، وسلف ٤/ ٤٨٧ وقوله: «أنْفُسها» قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢/ ١٤٧: ضبط العلماء «أنفسها» بالنصب والرفع، وهما ظاهران، إلا أن النصب أظهر وأشهر.

سُورَةُ النَّاسِ

مُختَلَفٌ فيها، وآيها سِتٌّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ قُرِئَ في السُّورتينِ بحَذفِ الهمزةِ ونقلِ حركَتِها إلى اللامِ[1].

﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ لَمَّا كانت الاستعاذةُ في السُّورَةِ المُتقدِّمَةِ مِن المَضارِّ البَدنيَّةِ، وهي تعمُّ الإنسانَ وغيرَهُ، والاستعاذةُ في هذه السُّورَةِ مِن الأضرارِ التي تَعرِضُ النُّفوسَ البَشَريَّةَ وتَخصُّهَا= عَمَّمَ الإضافةَ ثَمَّ وخصَّصَها بالنَّاسِ هاهنا، وكأنَّه قيل: أعوذُ مِن شرِّ المُوَسوسِ إلى النَّاسِ بربِّهِم الذي يملكُ أمورَهُم ويستحقُّ عِبادَتَهُم.

(٢ - ٣) - ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ عَطْفَا بيانٍ له؛ فإنَّ الرَّبَّ قد لا يكونُ ملِكًا، والملِكُ قد لا يكونُ إلهًا.

وفي هذا النَّظْمِ دلالةٌ على أنَّه حقيقٌ بالإعادةِ قادِرٌ عليها غيرُ مَمنوعٍ عَنْها، وإشعارٌ على مراتبِ النَّاظرِ في المعارفِ؛ فإنَّه يعلمُ أوَّلًا بما يَرى عليهِ مِن النِّعَمِ الظَّاهرَةِ والباطنةِ أنَّ له ربًّا، ثمَّ يتغلغَلُ في النَّظَرِ حتَّى يَتحقَّقَ أنَّه غَنيٌّ عن الكلِّ،

---

(١) هي قراءة ورش. انظر: «التيسير» (ص: ٣٥).

وذاتُ كلِّ شيءٍ له، ومصارفُ أمرِهِ مِنهُ، فهُو الملكُ الحقُّ، ثمَّ يَستَدِلُّ به على أنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ لا غير.

وتَدرَّجَ في وجوهِ الاستعاذةِ المعتادةِ تنزيلًا لاختلافِ الصِّفاتِ مَنزِلَةَ اختلافِ الذَّاتِ؛ إشعارًا بعظمِ الآفةِ المُستعاذِ مِنْها.

وتكريرُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لِمَا في الإظهارِ مِن مَزيدِ البَيَانِ والإشعارِ بشَرَفِ الإنسانِ.

(٤) ـ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾؛ أي: الوسوسةِ؛ كالزَّلزالِ بمَعنى الزَّلزلةِ، وأمَّا المصدرُ فبالكسرِ كالزِّلزالِ، والمُرَادُ به: المُوَسوِسُ؛ سُمِّيَ بفعلِهِ مُبالغَةً.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي عادَتُه أن يَخنِسَ؛ أي: يتأخَّرَ إذا ذكرَ الإنسانُ ربَّهُ.

(٥) ـ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غَفَلُوا عن ذكرِ رَبِّهم، وذلك كالقوَّةِ الوهميَّةِ فإنَّها تُساعِدُ العقلَ في المقدِّماتِ، فإذا آلَ الأمرُ إلى النَّتيجةِ خنَسَتْ وأخذت تُوسوِسُهُ وتُشكِّكُه.

ومحلُّ ﴿ٱلَّذِى﴾ الجرُّ على الصِّفَةِ، أو النَّصبُ أو الرَّفعُ على الذَّمِّ.

(٦) ـ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أو لـ﴿ٱلَّذِى﴾، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾؛ أي: يوسوسُ في صُدورِهِم مِن جِهَةِ الجنَّةِ والنَّاسِ.

وقيل: بيانٌ لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ المرادَ به ما يعمُّ القبيلتينِ. وفيه تعسُّفٌ إلا أن يرادَ به النَّاسي، كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] فإنَّ نسيانَ حقِّ الله تَعالى يعمُّ الثَّقلينِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ المُعوِّذتينِ فكأنَّما قرأَ الكتبَ التي أنزلَها اللهُ تعالى»(١)(٢).

وقـد اتفـق إتمـامُ تعليقِ سَـوادِ هـذا الكتـابِ المُنْطـوي علـى فَرائدِ فوائـدِ ذوي الألبـاب، المشـتملِ علـى خُلاصةِ أَقـوالِ أَكابرِ الأئمَّة، وصَفـوةِ آراءِ أَعـلامِ الأمَّة، في تفسـيرِ القُـرآنِ وتَحقيقِ مَعانيه، والكَشـفِ عـن عَويصـاتِ أَلفاظِه ومُعجـزاتِ مَبانيه، مـع الإيجـازِ الخالـي عـن الإخـلال، والتَّلخيـصِ العـاري عـن الإمـلال، الموسـومِ

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٧٢)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» (٣/ ١١٤٢)، و«الفوائد المجموعة» (ص: ٢٩٦).

(٢) **جاء في خواتيم النسخ الخطية التي اعتمدناها في التحقيق لكتاب «تفسير البيضاوي»:**

في نسخة العلامة الفاروقي تلميذ المصنف ـ بعد قوله: «أنزلها الله تعالى» ـ والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، تم المجلد الثاني من كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل **آخر مصنفات الإمام** الأعظم المرحوم السعيد الشهيد قاضي قضاة المسلمين والحق والدين أبي سعيد عبد الله بن الإمام المعظم المغفور إمام الحق والدين عمر البيضاوي قدس الله أرواحهما المطهرة وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خيرا مع المجلد الأول على يدي العبد المذنب الفقير إلى رحمة الله تعالى عبد الصمد بن محمود بن عبد الصمد الفاروقي في أواسط جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وست مئة، **وقد انخرط المصنف سقى الله ثراه ورضي عنه وأرضاه في سلك الجواهر القدسية بتبريز** متعريًا عن جلباب الجسمية **في شوال لسنة إحدى وتسعين وست مئة**، أسأل الله تعالى له الرضوان ولنفسي الرحمة والغفران، والحمد لله حمدًا بكافي نعمه ويوافي مزيده وصلواته على محمد وآله».

وفي نسخة العلامة الخيالي: «والله أعلم تم النصف الأخير من هذا التفسير بعون الملك القدير في أواخر ذي القعدة من سنة ست وخمسين وثمان مئة هجرية».

وفي نسخة العلَّامة ناصرِ الدين الطبلاوي: «والله أعلم تم أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». وجاء على هامشها: «بلغ مقابلة على أصل صحيح، فصحَّ إن شاء الله وصار للناظر مريح».

بـ«أنـوارِ التَّنزيل وأسـرارِ التَّأويـلِ»[١] في آخر شـهرِ التَّوبةِ جمادى الآخرِ سـنةَ إحدى وتسـعين وسـتّ مئة.

وأسألُ الله تعالى أن يَعُمَّ نفعُه للطُّلابِ، ولا يُخلِّي سعيَ مَن يتعبُ فيه من الأجرِ والثَّواب، ويختم كلَّ خاتمةِ أمري يومَه بتمحيصي عن الآثامِ وتبليغي أعلى منازلِ دارِ السَّلام في جوارِ العليِّين مع النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وهو سبحانه حقيقٌ بأنْ يحقِّقَ رجاءَ الرَّاجينَ تحقيقاً.

* * *

(١) من قوله: «وقد اتفق إتمام...» إلى هنا كذا جاء في خاتمة نسخة العلَّامة التفتازاني بخطِّه، وقد انخرم تتمة كلامه في النسخة، وأتممناه من نسخة السلطان أحمد برقم (٣٦) وهي خاتمة مهمة متضمنة لتاريخ تأليف الكتاب.

(١١٤) سورة الناس مكية
وآياتها ست

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عزَّ وجلَّ : (الربوبية) و (الملك) و (الإلهية) ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزيّن له الفواحش . ولا يألوه

جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير». وثبت في الصحيحين «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال - شراً»[1]. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»[2]. وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب، قال ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً، وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بيّنهم فقال: ﴿من الجنة والناس﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، وكما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل»، قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال، فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»[3]، وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء، لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»[4]

[آخر التفسير، وقد تم والحمد لله رب العالمين]

* * *

استدراك: الحديث الوارد عند قوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ من سورة البقرة ص ٢٢٦/ج١ وهو قوله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» لم تشر النسخ المطبوعة والمخطوطة إلى ضعفه. وقد أرشدني **فضيلة الشيخ عبد الله ابن حميد الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام** إلى أن الحديث ضعيف وأنه قد وجد ذلك

(١) أخرجه الشيخان في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف فلقيه رجلان فقال: «على رسلكما إنها صفية» الحديث.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة بلفظ أطول.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

في نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم الشريف. وقد رجعت بنفسي إلى المخطوطة فوجدت النص التالي: « روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن ثوبان – رفعَ الحديث – قال: لا يزال بكم سبعة تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله ». ثم ذكر بسنده عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ « لا يزال في أُمتي ثلاثون. بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة: وإني لأرجو أن يكون الحسن منهم. وهذان الحديثان ضعيفان وإسناد كل منهما لا يثبت. هكذا ورد في النسخة المخطوطة ج ١ ص ٦٤٦ ومع ملاحظة الفرق بين اللفظين (الأبدال في أُمتي ثلاثون) في النسخة المطبوعة و (لا يزال في أُمتي ثلاثون) الخ في المخطوطة فقد رأينا التنبيه إلى ذلك **وشكر الله لفضيلة الشيخ بن حميد مسعاه. وجزاه الله على إرشاده الكريم خير الجزاء.**

وكتبه محمد علي الصابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ .

هذه ثلاث صفات (١) من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية : فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ،وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزَيِّن له الفواحش ، ولا يألوه جهداً فى الخبال . والمعصوم من عَصَمَ الله، وقد ثبت فى الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعاننى عليه ، فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » (٢) ، وثبت فى الصحيح ، عن أنس فى قصة زيارة صفية النبى ﷺ وهو معتكف ،وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيى » .فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال :« إن الشيطان يجرى من ابن آدم(٣) مجرى الدم ،وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً ، أو قال : شراً » (٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن بحر ، حدثنا عدى بن أبى عمَارة ، حدثنا زياداً (٥) النّميرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه (٦) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر (٧) خَنَس ، وإن نسى (٨) التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس »(٩) . غريب.

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعت أبا تميمة يُحَدث عن رَديف رسول الله ﷺ قال : عَثَر بالنبى ﷺ حمارهُ ، فقلت : تَعِس الشيطان. فقال النبى ﷺ: « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظَم ، وقال : بقوتى صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » (١٠).

تفرد به أحمد ، إسناده (١١) جيد قوى ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفى ، حدثنا الضحاك بن عثمان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان فى المسجد ، جاءه الشيطان فأبس

(١) فى هـ : « صفة » والمثبت من م ، أ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « من الإنسان » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٧٤) وهو فى صحيح البخارى برقم (٢٠٣٥،٦٢١٩،٧١٧١) من حديث صفية ، رضى الله عنها .

(٥) فى م : « زياد » وهو الصواب .

(٦) فى أ : « خرطومه » .

(٧) فى أ : « ذكر الله » .

(٨) فى أ : « نسى الله » .

(٩) مسند أبى يعلى (٧/٢٧٨،٢٧٩) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/٧٤٢) : « إسناده ضعيف » ؛ وذلك لضعف زياد النميرى والكلام فى عدى بن أبى عمارة .

(١٠) المسند (٥/٥٩) .

(١١) فى م : « إسناد » .

به كما يُبَس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه ــ أو : ألجمه » . قال أبو هُرَيرة : وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلاً ــ كذا ــ لا يذكر الله ،وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ،قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خَنَس . وكذا قال مجاهد ،وقتادة .

وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ذُكرَ لى أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث فى قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ،فإذا ذكر الله خنس .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ ،قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس.

وقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، هل يختص هذا ببنى آدم ــ كما هو الظاهر ــ أو يعم بنى آدم والجن ؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا فى لفظ الناس تغليبا .

وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجَالٌ منَ الجنَ) فلا بدع فى إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ،هل هو تفصيل لقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾. وهذا يقوى القول الثانى. وقيل قوله: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾، تفسير للذى يُوسوس فى صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ،كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما قال الإمام أحمد :

حدثنا وَكِيع ، حدثنا المسعودى ، حدثنا أبو عُمَر الدمشقى ، حدثنا عبيد بن الخشخاش ، عن أبى ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست،فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت؟». قلت: لا .قال: « قم فصل » . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : « يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » .

قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . قال : قلت : يا رسول الله، الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قلت : يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : « فرض يجزئ ، وعند الله مزيد » .قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : «أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، أيها (٢) أفضل ؟ قال : « جُهد من مُقل ، أو سر إلى فقير». قلت :يا رسول الله ، أى الأنبياء كان أول ؟ قال :« آدم ». قلت : يا رسول الله ،ونبى (٣) كان ؟ قال : « نعم ، نبى مُكَلَّم » . قلت : يا رسول الله ،كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جَمَّاً غَفيراً ». وقال مرة : « خمسة عشر » . قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم؟

(١) المسند (٢/ ٢٣٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٤٢) : « رجاله رجال الصحيح » .
(٢) فى م : « فأيها » .   (٣) فى م : « ونبياً » .

قال : « آية الكرسى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ » .

ورواه النسائى ، من حديث أبى عمر الدمشقى ، به (١). وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، بطريق آخر ، ولفظ آخر مطول جداً (٢) ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن ذر بن عبد الله الهَمْدانى ، عن عبد الله بن شداد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أحدث (٣) نفسى بالشىء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبى ﷺ : «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » .

ورواه أبو داود والنسائى، من حديث منصور ــ زاد النسائى: والأعمش ــ كلاهما عن ذر ،به(٤).

آخر التفسير ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله رب العالمين(٥). وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين (٦) . ورضى الله عن الصحابة أجمعين (٧). حسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان الفراغ منه فى العاشر من جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وثمانين . والحمد له وحده(٨) .

---

(١) المسند (٥/ ١٧٨) وسنن النسائى (٨/ ٢٧٥) .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٩٤) « موارد » ، (١/ ٢٨٧) « الإحسان » من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغسانى ، عن أبيه عن جده ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، وقد قال ابن عدى عن هذا الحديث : « هذا الحديث منكر من هذا الطريق » .

(٣) فى م : « لأحدث » .

(٤) المسند (١/ ٢٣٥) وسنن أبى داود برقم (٥١١٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٠٣) .

(٥) فى أ : « والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى » .

(٦) فى أ : « وسلم تسليماً أبداً دائماً إلى يوم الدين » .

(٧) فى أ : « ورضى الله عن أصحاب رسول الله » .

(٨) فى م :« آخر التفسير ويليه فضائل القرآن للمؤلف أيضاً ،وبه يتم الكتاب إن شاء الله ،ولله الحمد والمنة على التمام، إنه ولى الإنعام».
وقد جاء فى خاتمة النسخة « هـ » هذه الخاتمة للناسخ :

« الحمد لله الذى رفع السماء بغير عماد ، وبسط الأرض وثبتها بالأطواد ، ومنح معرفته ومحبته من شاء من العباد ، وأقام لدينه أولياء ينصرونه ويقومون به ، وجعل منهم النجباء والأقطاب والأوتاد ، وأعلى منار الدين بالعلماء العاملين ، وأوضح بهم طرق الرشاد ، وقَمَع بهم أهل الزيغ والأهواء والبدع والفساد ، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الإسناد ، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، المتعالى عن الشركاء والنظراء والأنداد ، المنزه عن الحلول والاتحاد والإلحاد .

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله ، وحبيبه وخليله ، سيد العباد ، صلى الله عليه وعلى آله النجباء الأمجاد ، وصحابته السادة الأبرار الأمجاد ، صلاة تدوم وتقوم ما قامت السموات والأرض بأمره ، وقابل البياض السواد .

وبعد ، فقد أمرنى السيد الجليل ، من وصل الله له جناح الصنيع الجميل ، وواصل عليه السّول ، وأوصل إليه المأمول ، وعَمّر بحبه ربوع أنسى ، وأمطر بفيضه ربيع نفسى ، مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله سبحانه الآمل الراجى عفوه الكريم وإحسانه ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين حجة الإسلام والمسلمين، سيد العلماء فى العالمين ، بهاءُ الملة ، لسانُ الشريعة ،عزّ السنة ، حصْنُ الأمة، خطيب الخطباء ، إمام البلغاء ، غرة الزمان ، ناصر الإيمان شيخ شيوخ العارفين ، أبو حفص عمر ــ ابنُ سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ــ الشيخ الإمام العلامة ، والحَبْر الفهامة ، قدوة العلماء العاملين ، أبى محمد حجى السعدى الشافعى ــ أمر ــ أعلى الله أمره ، وأسد قدره ، من لا يتقلب إلا فى طاعته ، ولا يتصرف إلا فى مرضاته ــ أن يُكتَبَ برسم خزانة تفسيرُ الإمام العالم الكبير ، العلامة عماد الدين ابن كثير ــ رحمه الله وأرضاه ، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ،=

= وعددت هذا الأمر من أنفس البضاعة ، مع أنى فى الكتابة قليل الصناعة . فكتبت قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه . فإن صادفت قبولاً وبلغت مأمولاً، فيكون سعدى سعيداً ، ويقع سهمى سديداً . . .

فَإن وَقَفَتْ بى قُدْرَتى دُونَ همتى فمبلغَ علْمى والمعاذيرُ تُقْبَلُ

قد جمعت هذه الخزانةُ الشريفةُ أشتات العلوم على الإطلاق ، من رام مثلها فهو مُقَصر عن روم أسباب اللّحاق، خصوصاً إذا كان بها هذا التفسير الذى مادته سُنَن المصطفى المنبه على جوامع ما يزداد اللبيب بها بصيرة فى علمه النافع ، إذ كان ﷺ قد أوتى جوامع الكلام ، وعلّم فصل الخطاب . فلم يسمع الناس كلاماً أعم نفعا ، ولا أقصر لفظاً ، ولا أعدل وفراً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ﷺ .

فلله درُّ مولانا ؛ إذا جمع الفضائل ، ونظم آحاد العقائل ، وحاز من العلم الذرى والغوارب . فلا يخفى على ذى لب أنه أغْرقَ فى الفهم فُصولاً ، وأعرق فى العلم أصولاً ، فأقول مختصراً ، وعما يليق بمدحه معتذراً ، عسى يمر به من تضاعيف ثنائى عليه ما يبلغنى به الزلفى فى حبه ، والقربى من قلبه ، وتلك أمنيتى حين ألقى منيتى ، لا أتعداها ، ولا أتمنى سواها ولله در القائل :

إذا ابنُ حجى حادت لنا يدهُ لم يُحمد الأجودان البحر والمطرُ
وَإن أضاءت لنا أنوارُ غُرته تضاءل الأنوران الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو جَدَّ عزمته تأخر الماضيان السيف والقدر
من لم يبت حذراً من خوف سطوته لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر؟
كأنه الدهر فى نعمى وفى نقم إذا تعاقب منه النفع والضرر
كأنه وزمام الدهر فى يده يدا عواقب ما يأتى وَمَا يذَر

فالحمد لله الذى جعل جمال منظرك موازياً لكمال مخبرك ، وشامخ فَرعكَ مقارناً لراسخ عنصرك ، والله حسبى فيك من كل ما يُعَوِّذ العبد به المولى :

واسلم وعش لا زلت فى نعمة أنت بها من غيرك الأولى

وصَلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه الفقير محمد بن على الصوفى البواب ، لمنعاه التضائية ، بدمشق المحروسة ، حامداً ومصلياً ، ومحسبلاً ومحوقلاً ، والحمد لله وحده » .

يقول الفقير إلى عفو ربه سامى بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة : وكان الانتهاء من تحقيق تفسير القرآن العظيم فجر يوم الأربعاء الثانى من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية فى مدينة الرياض ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الناس

مدنيّة،[1] وهي ستّ آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقُرئ في السورتين بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى "اللام".[2]

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالك أمورهم ومربّيهم، بإفاضة ما يصلحهم، ودَفْع ما يضرُّهم.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان، جيء به لبيان أنّ تربيته تعالى إيّاهم ليست بطريق تربية سائر المُلّاك / لِما تحت أيديهم مِن مماليكهم؛ بل بطريق المُلك الكامل، والتصرّف الكلّي، والسلطان القاهر. [٣٢٨ظ]

وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه لبيان أنّ مُلكه تعالى ليس بمجرّد الاستيلاء عليهم، والقيامِ بتدبير أمور سياستهم، والتولّي لترتيب مبادي حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك؛ بل هو بطريق المعبوديّة المؤسَّسة على الألوهيّة المقتضية للقدرة التامّة على التصرّف الكلّي فيهم إحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. وتخصيص الإضافة بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مع انتظام جميع العاملين في سِلك ربوبيّته تعالى وملكوته وألوهيّته للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضيّة عنده تعالى الحقيقةِ بالإعاذة؛ فإنّ توسّل العائذ بربّه وانتسابَه إليه تعالى بالمربوبيّة والمملوكيّة والعبوديّة في ضمن جنس هو فرد مِن أفراده مِن دواعي مزيدِ الرحمة والرأفة، وأمرُه تعالى بذلك مِن دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالةَ، ولأنّ المستعاذ منه شرُّ الشيطان المعروف بعداوتهم.

---

[1] س: مختلف فيها.

[2] قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٨.

ففي التنصيص على انتظامهم في سِلك عبوديّته تعالى وملكوته رمزٌ إلى إنجائهم مِن مَلَكة الشيطان وتسلّطِه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر، ٤٢/١٥]، فمَن جَعَل مدار تخصيص الإضافة مجرَّدَ كون الاستعاذة مِن المضارّ المختصّة بالنفوس البشريّة، فقد قصَّر في توفية المقام حقَّه، وأمّا جعلُ المستعاذ منه فيما سبق المضارّ البدنيّة فقد عرفتَ حاله، وتكريرُ المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة، وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأمّا المصدر فبالكسر، والمراد به الشيطان، سُمّي بفعله مبالغة؛ كأنّه نفس الوسوسة. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخّر إذا ذَكَر الإنسان ربّه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غفَلوا عن ذكره تعالى. ومحلُّ الموصول إمّا الجرّ على الوصف، وإمّا الرفع أو النصب على الذمّ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ على أنّه ضربان: جِنّي وإنسي،

[٣٢٩و] / كما في[١] قوله[٢] تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام، ١١٢/٦]، أو متعلّق بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾، أي: يوسوس في صدورهم مِن جهة الجِنّ ومِن جهة الناس. وقد جُوِّز أن يكون بيانًا لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على أنّه يُطلَق على الجنّ أيضًا حسب إطلاق "النفر" و"الرجال" عليهم،[٣] ولا تعويلَ عليه.[٤]

وأقرب منه أن يُراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الناسي، ويُجعَلَ سقوط "الياء" كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، ثمّ يُبيّن بـ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حقّ الله سبحانه،[٥] إلّا مَن تداركَه شوافعُ عصمته، وتناولَه واسعُ رحمته، عصمَنا الله عزّ وجلّ مِن الغفلة عن ذِكره، ووفّقَنا لأداء حقوق شكره.

---

[١] س – في.

[٢] س: قال.

[٣] كما في الآية الأولى والسادسة مِن سورة الجنّ.

[٤] هذا الوجه وتفصيل تضعيفه مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

[٥] هذا الوجه مع تقويته مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

١١٤

سُورَةُ النَّاسِ

مكية أو مدنية، ستُّ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾: خالِقِهم ومالكهم ـ خُصُّوا بالذكر تشريفًا لهم ومناسبةً للاستعاذة من شرّ المُوَسوِس في صُدورهم ـ ٢ ـ ٣ ـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ، إِلَـٰهِ النَّاسِ﴾: بدلان أو صفتان أو عطفا بيان، وأُظهِر المضافُ إليه فيهما زيادةً للبيان، ٤ ـ ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي: الشيطان سُمِّي بالحدَث لكثرة مُلابسته له ﴿الْخَنَّاسِ﴾ لأنه يخنِس: يتأخّر عن القلب كُلّما ذُكر اللهُ، ٥ ـ ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾: قُلوبهم إذا غفَلوا عن ذِكر الله، ٦ ـ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: بيانٌ للشيطان المُوَسوِس أنه جنّيٌّ وإنسيّ كقوله تعالى:

قولُهُ: (خَالِقِهِم) قالَ البيضاويُّ[(١)]: قُرِئَ في السُّورَتينِ بحذفِ الهمزَةِ ونقلِ حركَتِها إلى اللَّامِ، والحالُ أنَّه قراءَةٌ مُتواتِرَةٌ لورش، وقاعدَةٌ مُطَّرِدَةٌ له وَقفاً ووَصلاً، ولحمزَةَ وَقفاً[(٢)].

قولُهُ: (في صُدُورِهِم) وكأنَّهُ قيل: أعوذُ من شرِّ الموسوِسِ إلى النَّاسِ بربِّهِم الذي يملكُ أمورَهُم ويستحِقُّ عِبادَتهم.

قولُهُ: (أو عَطفاً بَيَانٍ) الظَّاهرُ: عَطفَا بيانٍ.

قولُهُ: (زِيَادَةً للبيَانِ) وإشعاراً بشرَفِ الإنسانِ، وقيل: المرادُ بالأوَّلِ: الأطفالُ ويلائمُهُ معنى التَّربيَةِ، والثَّاني: الشَّبابُ ويُطابقُهُ معنى السَّلطنَةِ والسِّياسَةِ، والثَّالث: الشُّيوخُ ويناسبُهُ معنى العبوديَّةِ للألوهيَّةِ.

قولُهُ: (سُمِّيَ) أو أريدَ.

قولُهُ: (بالحَدَثِ) أي: بفعلِهِ مُبالغَةً، أو معناهُ: الموَسوِسُ.

قولُهُ: (بَيَانٌ للشَّيطَانِ) أو الذي هذا، وقالَ الجاربرديُّ في حاشيتِهِ على «الكشاف»[(٣)]: واختِتامُهُ بالاستعاذَةِ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٥٠). (٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٨٥، ٢٣٧).

(٣) هذه الحاشية لم تطبع بعد، ومصنفها: أحمد بن الحسن، فخر الدين، أبو المكارم الجاربردي، إمام فاضل وقور، صاحب =

«شَياطِينَ الإنسِ والجِنِّ»، أو «من الجنة»: بيان له «والناسِ»: عطف على الوسواس.

وعلى كُلٍّ شَمَلَ شرَّ لبيدٍ وبناته المذكورين. واعتُرض الأوّل بأنّ الناس لا يُوسوسون في صدور الناس، إنما يُوسوس في صدورهم الجِنُّ. وأُجيب بأنّ الناس يُوسوسون أيضًا بمعنًى يليق بهم في الظاهر، ثمّ تصل وسوستهم إلى القلب وتثبت فيه بالطريق المُؤدّي إلى ذلك. والله ـ تعالى ـ أعلم.

أيضاً نعمةٌ، إمَّا لأنَّ مثلَ هذا القُرآنَ لمَّا نزلَ على العبادِ وقرؤُوهُ وعَمِلوا به كانَ مظنَّةً أن يزلَّهُم الشَّيطانُ بإيقاعِ العُجْبِ والكِبْرِ، فاختتَمَ بالمعوِّذتَينِ؛ لدفعِ ذلك، وإمَّا لأنَّ الكُفَّارَ كانوا يُصيبونَ بالعَينِ ويقصدونَ ذلك، قالَ تعالَى: ﴿وإِن يَكَادُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [القلم: ٥١].

وقالَ السَّيِّدُ السَّندُ[١]: فيه إشارةٌ لطيفَةٌ، قالَ كمال باشا[٢]: وجهُ الإشارَةِ أنَّ الاستعاذَةَ من شرائطِ بَدْءِ القراءَةِ بحُكمِ ﴿فَإِذَا قَرأتَ القُرآنَ﴾ [النحل: ٩٨]، وفي الختمِ بالاستعاذَةِ نوعُ تذكيرٍ لذلك الشَّرطِ فينتَقِلُ الذِّهنُ منه إلى المشروطِ، ويكون ذلك كالباعثِ لابتداءِ القراءَةِ مرَّةً أخرى، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على ذلكَ بقولِهِ: «رَحِمَ الله الرَّاحِلَ والمرتَحِلَ»[٣].

قلتُ: ومن الاتِّفاقيَّاتِ البديعيَّةِ والتَّوفيقاتِ الإلهيَّةِ ما وقَعَ في هذا التَّفسيرِ من انضِمامِ الفاتِحَةِ إلى الخاتِمَةِ.

وقالَ الكافيجيُّ: وأشارَ إليه بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فَاستَعِذ بالله﴾ [النحل: ٩٨] على أحَدِ الوجهينِ؛ يعني: على القَولِ بأنَّ الاستعاذَةَ عندَ خَتمِ القراءَةِ، قلتُ: فإذا ختَمَ وبَدأ يكونُ عامِلاً بالوَجهينِ، ويحصلُ له أجرُهُ مرَّتينِ، والله سبحانَهُ وتعالى أعلم.

* * *

= المصنفات البديعة، والمؤلفات المفيدة، أخذ العلم عن القاضي البيضاوي، (ت: ٧٤٦هـ). انظر: «الدرر الكامنة» (١/ ١٤٢)، و«طبقات المفسرين» للأدنه وي (ص: ٢٨١).

(١) جاء في «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص: ١٢٥): علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف، والسيد المسند، الجرجاني، الحنفي، عالم نحرير، قد حاز قصبات السبق في التحرير، فصيح العبارة، دقيق الإشارة، نظار فارس في البحث والجدل، ولد في جرجان، وت (٧١٦هـ)، وله حاشية على تفسير البيضاوي.

(٢) وهو: أحمد بن سليمان ابن كمال باشا، ت: (٩٤٠هـ)، الفقيه الحنفي المشهور صاحب التصانيف الكثيرة، ومنها «حاشية على الكشاف». انظر: «الفوائد البهية» (ص: ٢١).

(٣) روى الترمذي (٢٩٤٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٦٨) (١٢٧٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل» قال: يا رسول الله، وما الحال المرتحل؟ قال: «يضرب من أول القرآن، إلى آخره، ومن آخره إلى أوله».

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بالقوي.

سُورَةُ النَّاسِ

وتسمَّى مع ما قبلها ـ كما أشرنا إليه قبلُ ـ بالمعوِّذتين بكسر الواو، والفتحُ خطأ، وكذا بالمقشقشتين، وتقدَّم الكلام في أمر مكيتها ومدنيتها. وهي ستُّ آياتٍ، لا سبعٌ وإن اختاره بعضهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام كما قرئ: «فَخُذَ ارْبعة»[1] [البقرة: ٢٦٠].

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكِ أمورهم، ومربِّيهم بإفاضة ما يصلحهم ودَفْعِ ما يضرُّهم، وأمال «الناس» هنا أبو عمرو، والدوريُّ عن الكسائيِّ، وكذا في كلِّ موضع وقع فيه مجروراً[2].

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ عطفُ بيانٍ على ما اختاره الزمخشريُّ[3]، جيء به لبيانِ أنَّ تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر المـلَّاكِ لِمَا تحت أَيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل والتصرُّفِ الكلِّيِّ والسلطان القاهر. وكذا قولُه تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ فإنه لبيان أنَّ ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم،

(١) التيسير ص٣٥.
(٢) قال ابن مجاهد في السبعة ص٧٠٣: كلُّهم قرأ «الناس» غير ممالة إلا ما روى الحلواني عن أبي عمرو الدوري عن الكسائي أن قراءته كانت بإمالة النون من «الناس» في موضع الخفض، ولا يميل في الرفع والنصب.
(٣) في الكشاف ٤/ ٣٠٢.

والقيامِ بتدبير أمور سياستهم، والتولِّي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم، كما هو قُصارى أمرِ الملوك، بل هو بطريق المعبودية المؤسَّسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرُّف الكلِّي فيهم إحياءً وإماتةً، وإيجاداً وإعداماً. وجوِّزت البدلية أيضاً.

وقال أبو حيان: إنهما صفتان، وتعقَّب قول الزمخشري أنهما عطف بيان: بأنَّ عطف البيان المشهورُ أنه يكون بالجوامد، وأن ظاهر كلامه أنهما عَطْفَا بيانٍ لواحد، ولم أظفر من النحاة بشيءٍ في أمر عطف البيان، هل يجوز أن يتكرر لمعطوف عليه واحد أم لا يجوز[1]. وأنت تعلم أنه لا مانع منه عقلاً، ثم ما هنا وإن لم يكن جامداً فهو في حُكْمِه، ولعل الجزالة دعتْ إلى اختياره.

وتخصيصُ الإضافة إلى «الناس» مع انتظام جميع العالم في سلك ربوبيته تعالى وملكوتِه وألوهيته ـ على ما في «الإرشاد» ـ للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة الحقيقة بالإعاذة، فإنَّ توسُّلَ العائذ بربِّه وانتسابَه إليه بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضِمْنِ جنسٍ هو فردٌ من أفراده، من دواعي مزيدِ الرحمة والرأفة، وأَمْرُه تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالةَ، ولأنَّ المستعاذَ منه شرُّ الشيطان المعروفِ بعداوتهم، ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمزٌ إلى إنجائهم من ملْكة الشيطان وتسلُّطِه عليهم حَسْبَما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2] [الإسراء: ٦٥].

واقتصر بعض الأجلَّة في بيان وجه التخصيص على كون الاستعاذة هنا من شرِّ ما يخصُّ النفوسَ البشرية، وهي الوسوسةُ كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وبُحث فيه ـ بعد الإغماض عمَّا فيه من القصور في توفية المقامِ حقَّه ـ بأن شرَّ الموسوس كما يلحق النفوسَ يلحق الأبدان أيضاً، وفيه شيء سنشير إن شاء الله تعالى إليه.

---

(١) البحر ٨/ ٥٣١-٥٣٢. والكلام من قوله: وقال أبو حيان، إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٢) إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١٦.

واختار هذا الباحثُ في ذلك أنه لَمَّا كانت الاستعاذة فيما سبق من شرِّ كلِّ شيءٍ، أُضيفَ الربُّ إلى كلِّ شيءٍ، أي: بناء على عموم «الفلق»، ولما كانت هنا من شرِّ الوسواس لم يُضَفْ إلى كلِّ شيءٍ، وكان النظر إلى السورة السابقة يقتضي الإضافة إلى الوسواس، لكنه لم يضف إليه حطًّا لدرجته عن إضافة الربِّ إليه، بل إلى المستعيذ، وكأنَّ في هذا الحطِّ رمزاً إلى الوعد بالإعاذة، وهو الذي يجعل لِمَا ذكر حظًّا في أداء حقِّ المقام.

وربما يقال: إنَّ في إضافة الربِّ إلى الناس في آخر سورةٍ من كتابه تذكيراً لأول أمرٍ عرفوه في عالم الذرِّ، وأُخِذَ عليهم العهد بالإقرار به فيما بعدُ، كما أشار إلى قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] فيكون في ذلك تحريضٌ على الاستعاذة من شرِّ الوسواس لئلَّا يتدنَّسَ أمرُ ذلك العهد، وفيه أيضاً رمزٌ إلى الوعد الكريم بالإعاذة.

وذكر القاضي(١) أنَّ في النَّظْم الجليل إشعاراً بمراتب الناظر المتوجِّه لمعرفة خالقه، فإنه يعلم أولاً بما يَرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أنَّ له ربًّا، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقَّق أنه سبحانه غنيٌّ عن الكلِّ، وذاتُ كلِّ شيءٍ له، ومصارفُ أمره منه، فهو الملك الحقُّ، ثم يستدلُّ به على أنه المستحقُّ للعبادة لا غير، ويتدرَّج(٢) في وجوه الاستعاذة المعتادة(٣) تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات، فإنَّ عادةَ من ألَمَّ به همٌّ أن يرفع أمره لسيده ومربِّيه كوالديه، فإنْ لم يقدرا على رَفْعِه، رَفَعَه لملكه وسلطانه، فإنْ لم يُزِلْ ظلامتَه شكاه إلى ملك الملوك ومَن إليه المشتكَى والمفزَعُ(٤)، وفي ذلك إشارة إلى عظم الآفة المستعاذ منها.

---

(١) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٧-٤١٨.

(٢) في (م): ويندرج، وفي تفسير البيضاوي: وتدرَّج، والمثبت من الأصل.

(٣) قوله: المعتادة، صفة لقوله: وجوه. قاله الشهاب.

(٤) من قوله: فإن عادة من ألَمَّ به همٌّ، إلى هذا الموضع، ليس من كلام البيضاوي، وإنما هو من شرح الشهاب له.

ولابن سينا هاهنا كلامٌ تتحرَّج منه الأقلام، كما لا يخفى على مَن أَلَمَّ به وكان له بالشريعةِ المطهَّرة أدنى إلمام.

وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة.

وقيل: لا تكرار؛ فإنه يجوز أن يراد بالعامِّ بعضُ أفراده، فالناسُ الأول بمعنى الأجِنَّة والأطفال المحتاجين للتربية، والثاني الكهول والشبان؛ لأنهم المحتاجون لمن يسوسُهم، والثالث الشيوخ المتعبِّدون المتوجِّهون لله تعالى. وهو على ما فيه يُبْعِدُه حديثُ إعادة الشيء معرفةً وإن كان أغلبيًّا.

وقال عصام الدين: استعاذ بربِّ الناس من الشرك الطاري بإسناد النعم إلى الأسباب الظاهرة، وبملك الناس من الشرك الطاري من إسناد السياسات ونظام المملكة إلى الملوك والسلاطين، وبإله الناس من الشرك الظاهر الذي يبتلى به المشرك. وسلك طريق الترقِّي وكرَّر الناس إظهاراً لمزيد الصفات الثلاثة على فرقة الناس. وليس بذاك(١).

والوسواس عند الزمخشري اسمُ مَصْدَرٍ بمعنى الوسوسة، والمصدرُ بالكسر، وهو صوت الحليِّ والهمسُ الخفيُّ، ثم استعمل في الخطرة الردية، وأريد به هاهنا الشيطان، سمِّي بفِعْلِه مبالغةً كأنه نفسُ الوسوسة، أو الكلام على حذفِ مضافٍ، أي: ذي الوسواس(٢).

وقال بعض أئمة العربية: إنَّ فعلل ضربان: صحيحٌ كدَحْرَجَ، وثنائيٌّ مكرَّرٌ كصَلْصَلَ، ولهما مصدران مطَّردان: فَعْلَلَة، وفِعْلال بالكسر وهو أقيس، والفتح شاذٌّ لكنه كثُر في المكرَّر كتَمْتام وفَأْفاء، ويكون للمبالغة كفَعَّال في الثلاثي، كما قالوا: وَطواط للضعيف، وثَرْثار للمكثِر، والحقُّ أنه صفةٌ، فليُحْمَلْ عليه ما في الآية الكريمة من غير حاجةٍ إلى التجوُّز أو حَذْفِ المضاف. وقد تقدَّم في سورة الزلزال ما يتعلَّق بهذا المبحث، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

---

(١) من قوله: وقال عصام الدين، إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٢) الكشاف ٤/ ٣٠٢ بنحوه.

والظاهر أنَّ المراد الاستعاذةُ من شرِّ الوسواس من حيث هو وسواسٌ، ومآلُه إلى الاستعاذة من شرِّ وسوسته.

وقيل: المراد الاستعاذةُ من جميع شروره، ولذا قيل: «من شر الوسواس» ولم يقل: من شرِّ وسوسة الوسواس. قيل: وعليه يكون القول بأنَّ شرَّه يلحق البدن كما يلحق النفس أظهرَ منه على الظاهر، وعُدَّ مِن شرِّه أنه ـ كما في «صحيح البخاري»[(١)] ـ يعقدُ على قافية رأس العبد إذا هو نام ثلاثَ عقدٍ، مرادُه بذلك منعُه من اليقظة، وفي عدِّ هذا من الشر البدني خفاءٌ.

وبعضهم عدَّ منه التخبُّط، إذ الحق عند أهل السنَّة أنه قد يكون من مسِّه كما تقدَّم في موضعه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغةُ مبالغةٍ أو نسبة، أي: الذي عادتُه أن يخنس ويتأخَّر إذا ذَكَر الإنسانُ ربَّه عز وجل؛ أخرج الضياء في «المختارة»، والحاكم وصحَّحه، وابن المنذر، وغيرُهم، عن ابن عباس قال: ما من مولودٍ يُولد إلا على قلبه الوسواسُ، فإذا عَقَل فذكر الله تعالى خَنَس، فإذا غَفَل وَسْوَسَ[(٢)]. وله على ما روي عن قتادة خرطومٌ كخرطوم الكلب[(٣)]. ويقال: إنَّ رأسه كرأس الحية.

وأخرج ابن شاهين عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ للوَسْوَاسِ خَطْماً[(٤)] كخَطْمِ الطائرِ، فإذا غَفَلَ ابنُ آدم وَضَعَ ذلك المنقارَ في أُذُن القلبِ يُوَسْوِس، فإنْ ذَكَرَ الله تعالى نَكَصَ وخَنَسَ، فلذلك سُمِّي الوسواس الخناس[(٥)].

---

(١) برقم (١١٤٢)، وأخرجه أيضاً مسلم (٧٧٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الأحاديث المختارة (١٧٢)، والمستدرك ٢/ ٥٤١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤١٠، والطبري ٢٤/ ٧٥٣-٧٥٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١٠.

(٤) الخَطْمُ: منقار الطائر. ومن الدابَّة: مقدَّم أنفِها وفمِها. القاموس (خطم).

(٥) عزاه لابن شاهين السيوطي في الدر ٦/ ٤٢٠، وأخرجه بنحوه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، ولفظه: «إن الشيطان واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خَنَسَ، وإن نَسِيَ التَقَم =

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ قيل: أُرِيد قلوبُهم مجازاً. وقال بعضهم: إنَّ الشيطانَ يدخُل الصدرَ الذي هو بمنزلة الدِّهْلِيز فيُلقي منه ما يريد إلقاءَه إلى القلب ويُوصِله إليه. ولا مانعَ عقلاً من دخوله في جوف الإنسان، وقد ورد السمعُ به كما سمعتَ فوجب قَبولُه والإيمانُ به، ومن ذلك: «إنَّ الشيطانَ ليَجْرِي من ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّم»(١).

ومن الناس مَن حمله على التمثيل، وقال في الآية: إنها لا تقتضي الدخولَ كما يُنادي عليه البيان الآتي.

وقال ابن سينا: الوسواس: القوَّةُ التي تُوقِع الوسوسةَ، وهي القوة المتخيّلة بحسب صيرورتها مستعملةً للنفس الحيوانية، ثم إنَّ حركتها تكون بالعكس، فإنَّ النفس وجهتها إلى المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيّلةُ إذا أخذتها إلى الاشتغال بالمادَّة وعلائقها فتلك القوَّةُ تَخْنُس، أي: تتحرَّك بالعكس وتَجذِب النفسَ الإنسانيةَ إلى العكس، فلذلك تسمَّى خنَّاساً.

ونحوه ما قيل: إنه القوة الوهميةُ، فهي تُساعِد العقلَ في المقدِّمات، فإذا آلَ الأمرُ إلى النتيجة خَنَسَتْ وأخذت تُوَسْوِسه وتشكِّكه.

ولا يخفى أنَّ تفسيرَ كلام الله تعالى بأمثالِ ذلك من شرِّ الوسواس الخناس. والقاضي(٢) ذكر الأخيرَ على سبيل التنظير لا على وجه التمثيل والتفسير، بناءً على حُسن الظنِّ به.

ومحلُّ الموصول إما الجرُّ على الوصف، وإمَّا الرفعُ والنصبُ على الذمِّ والشتم. ويحسُن أن يقفَ القارئ على أحد هذَينِ الوجهين على «الخناس»، وأما على الأول ففي الكواشي أنه لا يجوز الوقف. وتعقَّبه الطيبيُّ بأنَّ في عدم الجواز نظراً؛ للفاصلة.

= قلبه، فذلك الوسواس الخناس». قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤٩: فيه عدي بن عمارة، وهو ضعيف.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٨٥) (٢٤)، عن صفية ﵂، وقد سلف عند تفسير الآية (١٧) من سورة الأعراف.

(٢) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤١٨.

وفي «الكشف» أنه إذا كان صفةً فالحُسنُ غيرُ مسلَّم، اللَّهم إلا على وجهٍ، وهو أنَّ الوقفَ الحسَنَ شاملٌ لمثله في فاصلةٍ خاصَّة.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ بيانٌ لـ «الذي يُوَسْوِس» على أنه ضربان: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، أو متعلق بـ «يُوَسْوِسُ»، و«مِنْ» لابتداء الغاية، أي: يُوَسْوِس في صدورهم من جهة الجنِّ مثل أن يُلقيَ في قلب المرء من جهتهم أنَّهم ينفَعُون ويضرُّون، ومن جهة الناس مثل أن يُلقي في قلبه من جهة المنجِّمين والكُهَّان أنَّهم يعلَمُون الغيبَ.

وجوِّز فيه الحاليةُ من ضمير «يُوَسْوِس»، والبدليةُ من قوله تعالى: (مِن شَرِّ) بإعادة الجارِّ وتقدير المضاف، والبدليةُ من «الوَسْواس» على أن «مِنْ» تبعيضيةٌ.

وقال الفراء[1] وجماعة: هو بيانٌ لـ «الناس» بناءً على أنه يُطلَق على الجنِّ أيضاً، فيقال كما نُقِل عن الكلبي: ناسٌ من الجنِّ. كما يقال: نفرٌ ورجال منهم.

وفيه أنَّ المعروفَ عند الناس خلافُه، مع ما في ذلك من شبه جعل قِسْم الشيء قَسيماً له، ومثلُه لا يناسِبُ بلاغةَ القرآن وإن سُلِّم صحَّتُه. وتعقِّب أيضاً بأنَّه يلزم عليه القولُ بأنَّ الشيطانَ يُوَسِوس في صدور الجنِّ كما يوسوس في صدور الإنس، ولم يقم دليلٌ عليه، ولا يجوز جعلُ الآية دليلاً؛ لِمَا لا يخفى.

وأقرب منه ـ على ما قيل ـ أن يراد بـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ [الآية: ٥] الناسيُّ بالياء، مثله في قراءة بعضهم: «مِنْ حَيْثُ أفاضَ الناسِ»[2] [البقرة: ١٩٩] بالكسر، ويُجعَل سقوطُ الياء كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] ثم يبيَّن بـ «الجنة والناس»، فإنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الفريقَينِ مُبتلًى بنسيان حقِّ الله تعالى إلا مَن تداركه شوافعُ عصمتِه وتناوَلَه واسعُ رحمته، جَعَلَنا الله ممن نال من عِصمته الحظَّ الأوفى، وكَالَ له مولاه من رحمته فأوفى.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢.

(٢) وهي قراءة سعيد بن جبير كما في القراءات الشاذة ص١٢.

ثم إنه قيل: إنَّ حروفَ هذه السورة غيرَ المكرَّر اثنان وعشرون حرفاً، وكذا حروفُ الفاتحة، وذلك بعدَدَ السنين التي أُنزِل فيها القرآنُ. فليُراجَع، وبعد أن يوجد الأمرُ كما ذُكر لا يخفى أنَّ كون سني النزول اثنتين وعشرين سنةً قولٌ لبعضهم، والمشهورُ أنَّها ثلاثٌ وعشرون(١).

ومثل هذا الرمز ما قيل: إنَّ أولَ حروفه الباءُ، وآخرها السينُ، فكأنه قيل: بَسْ(٢)، أي: حسب، ففيه إشارةٌ إلى أنه كافٍ عما سواه، ورمزٌ إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقد نظم ذلك بعضُ الفرس فقال:

أولُ وآخِرِ قُرآن زجه بـا آمَـد وسِيـن ... يَعْني أَنْدَرْ دو جَهَان رَهْبَرِ مَا قُرْآن بَسْ(٣)

ومثلُه من الرموز كثيرٌ، لكن قيل: لا ينبغي أن يقال: إنه مرادُ الله عز وجل، نعم قد أَرْشَد عز وجل في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه، كما أرشد جلَّ وعلا إليها في الفاتحة، بل لا يبعُد أن يكون مرادُه تعالى ـ على القولِ بأنَّ ترتيبَ السور بوحيه سبحانه ـ مِن خَتْمِ كتابه الكريم بالاستعاذة به تعالى من شرِّ الوسواس الإشارةَ ـ كما في الفاتحة ـ إلى جلالة شأن التقوى، والرمز إلى أنها ملاكُ الأمر كلِّه، وبها يحصل حسنُ الخاتمة، فسبحانه من ملِكٍ جليلٍ ما أجلَّ كلمتَه، ولله درُّ التنزيل ما أحسن فاتحتَه وخاتمتَه.

❁ ❁ ❁

وبعد، فهذا والحمد لله تأويلُ رؤياي من قبل، قد جعلها ربِّي حقًّا، فأسعدني ـ وله الشكرُ ـ بالتوفيق لتفسير كتابه العزيز الذي لا يذلُّ مَن لَاذَ به ولا يشقى، فإذ وفَّقْتَني يا إلهي لتفسير عبارته، ووَقَفْتَني على ما شئتَ من مُضمَر

(١) ينظر الإتقان ١/ ١٢٩.

(٢) ورد في الأصل حاشية لهذه الكلمة: وهو عربي في قول كما في القاموس. اهـ منه. ينظر القاموس، وتاج العروس (بسس).

(٣) ومعناه: إن مجيء الباء والسين أول القرآن وآخره، معناه أن هادينا في العالمَيْنِ هو القرآن بَسْ (فقط لا غير).

إشارته، فاجعلني يا ربَّاه ممن يَعتصِم بمحكَم حبله؛ ويتمسَّكُ بعُروته الوُثقى، ويأوي من المتشابهات إلى حِرز معقِله، ويستظِلُّ بظِلالِ كَهْفه الأوقى، وأَعِذْني من وَساوِس الشيطان ومَكايِده، ومن الارتباك بشِبَاك غروره ومَصَايده؛ واجْعَلْه وسيلةً لي إلى أشرف منازل الكرامة، وسُلَّماً أَعرُج فيه إلى محلِّ السلامة. فطالما يا إلهي أسْهَرَتْني آياتُه، حتى خَفَقَتْ برأسي سِنةُ الكرى، فلم أَفِقْ إلَّا وقد لطمَتْني من صِفاح صحائفِ سُوَره ذاتُ سِوَار. وكَم وكَم سَرَتْ بي يا مولاي عباراتُه، حتى حَقَّقَتْ لي دعوى: عند الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى[1]. فلم أشعُر إلا وقد تلفَّعتْ نواعِسُ السوادي من فضلِ مِئزَرِ مَهاةِ الصُّبح بخمار، ولم أزل أسوِّد الأوراق في تحريرِ ما أَفَضْتَ عليَّ حتى بَيَّض نسخةَ عمري المشيبُ، وأجَدِّدُ النظرَ بتحديق الأحداق فيما أفضيتَ به من المشايخ إليَّ حتى بَلِيَ بُردُ شبابي القَشيبُ[2].

هذا مع ما قاسيتُه من خليلٍ غادرٍ، وجليلٍ جائرٍ، وزمانٍ غَشومٍ، وغُيومٍ وَابِلُها غُموم، إلى أمورٍ أنتَ بها يا إلهي أعلم، ولم يكن لي فيها سواك مَن يرحم. وأكثر ذلك يا إلهي قد كان حيثُ أهَّلْتَني لخدمة كتابك، ومَنَنْتَ عليَّ من غير حدٍّ بالفحصِ عن مستودَعات خِطابك، فاكْفِني اللَّهمَّ بحُرمته مؤنةَ معرَّةِ العباد، وهَبْ لي أمْنَ يومِ المعاد، وأعِذْني بلطفك، واغْذُني بنعمتك، ووفِّقني للتي هي أزكى، واستعمِلني بما هو أرضى، واسلُك بي الطريقةَ المُثْلى، وذوِّدني مَطياتِ الهُدى، وزوِّدني باقياتِ التُّقى. وأصْلِح ذرِّيتي، وبَلِّغني بهم أُمنيتي، واجعلهم عُلماءَ عاملين، وهُداةً مَهديِّين، وكن لي ولهم في جميع الأمور، واحفَظْني واحفَظْهم من فِتَن دارِ الغُرور.

---

(١) مثلٌ يضرب لما يُنال بالمشقة ويُوصَل إليه بالتعب. وقال الزمخشري في المستقصى ٢/ ١٦٨: يضرب في الحثِّ على مزاولة الأمر بالصبر وتوطين النفس حتى تحمد عاقبته. اهـ. وهو في شعر نسب في المستقصى للجليح، وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٤٢ للجميح، وفي مجمع الأمثال ٢/ ٣ لخالد بن الوليد، وفي الحيوان ٦/ ٥٠٨ لبكر بن عبد الله المزني، وفي تفسير القرطبي ٢٢/ ١٨٣ لعبد الله بن رواحة، وبعده:

وتنقضي عنهم غياباتُ الكرى

(٢) القشيب: الجديد. القاموس (قشب).

وأيِّد اللَّهم خليفَتك في خليقتِك، ووفِّقه بحُرمة كلامك لإعلاء كلمتك. وصلِّ وسلِّم على روح معاني الممكنات على الإطلاق، ورُوح مغاني قلوب المؤمنين والمؤمنات في سائر الآفاق، وعلى آله وأصحابه، وكلِّ من سلك سَنَنَ سُنَّته واقتفى، وقال في ظِلالِ ظليلِ شريعته قائلاً: حَسبي ذلك وكفى.

وقد صادف تسليمُ القلم من ركوعه وسجوده، في ظُلَم دياجي المداد، واضطجاعِه في بيت الدواة، بعد قيامه على ساق الخدمة لكتاب ربِّ العباد، ليلةَ الثلاثاء، لأربعٍ خلون من شهر رَبيع الآخَر، سنةَ ألفٍ ومئتين وسبعٍ وستِّين، من هجرة سيِّد الأوائل والأواخر، صلَّى الله تعالى عليه وسلم. وجاء تأريخه: أكمل تفسيري روح المعاني[١].

والحمد لله باطناً وظاهراً، وله سبحانه الشكرُ أولاً وآخراً.

تم الجزء التاسع والعشرون من تفسير روح المعاني، وبه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

(١) وهي بحساب الجمَّل سنة (١٢٦٧هـ) كما ذكر المؤلف أعلاه.